I. الهجرة القبائلية نحو فرنسا: أسطورة على أرض الواقع(*)

على ضوء مقال "عبد المالك صياد" حول أصول الهجرة القبائلية الجبلية

أ. فلة بن جيلالي(**)

تقديم

الهجرة وأسطورة القبائل: يتعلَّق الأمر في هذا المقال بعرض ترجمتي إلى اللُّغة العربية لنص "عبد المالك صياد" حول الهجرة القبائلية والتي قمت بها على الرغم من أنَّني لم أكن أفكر يوما قط. إنَّ وضعيتي الخاصة هي التي استقطبتني لخوض هذه التجربة الأولية، فهجرتي الذاتية الجامعية كطالبة تبحث في ميدان يتقاطع وموضوع الهجرة القبائلية هي التي ساعدتني على التفكير في ترجمة نص الهجرة "لعبد المالك صياد"، بل وأرغمتني –نوعا ما– عليها لأنَّ دراسة الهجرة تقتضي معرفة ميدانية ومباشرة لها، أي أنَّها تستلزم خوض تجربتها في الواقع، وذلك بهدف إعادة تركيب الجزأين المكوَّنين لنفس الظاهرة، ألا وهما الهجرة من الوطن الأصلي والهجرة في الوطن المستقبل[1].

---

*) نشر الموضوع في **مجلة فكر ومجتمع، ع9**، الجزائر.

)حاليا، محاضرة ونائبة رئيس الجامعة في المركز الجامعي **خميس مليانة – الجزائر.

لقد شدَّني في موضوع الهجرة عند عبد المالك صياد، الشكل المتميِّز الذي يتناولها من خلاله، وهو يبرز ببراعة أهمية البعد الإجتماعي الاقتصادي والسياسي الاستعماري لها مبيِّنا الخصائص المشتركة بينها وبين الهجرات المحلية الأخرى في الشرق والغرب، ممَّا يجعل من إشكالية الهجرة القبائلية في نظره تختلف طرحا عنها لدى غيره ممّن تناولها[2].

إنَّ اهتمامي بموضوع الهجرة القبائلية يصبُّ مباشرة في البحث الذي أخوضه حاليا في ميدان العلوم السياسية، والذي يدور موضوعه حول السياسة الجهوية والهوية الأمازيغية[*] في الجزائر، فقد كان هذا المقال الوارد باللغة الفرنسية في مجلة

(Homme et migration)[3] المدخل الذي اكتشفت من خلاله " عبد المالك صياد" الذي كانت مشاركته في ملف هذا العدد من المجلة غير منتظر لأنَّه عادة ما يقوم بنشر مقالاته عبر قنوات علمية متخصِّصة في موضوع الهجرة وعلم الاجتماع، فالمقالات التي وردت إلى جانب مقاله في هذه المجلة المتجهة نحو جمهور واسع نسبيا، والتي ساهم من خلالها بعض الجامعيين والأساتذة الباحثين ذوي الأصل القبائلي[4] أمثال "سالم شاكر" و"تاسعديت ياسين"، كانت على غرار مقاله، جلها مقالات قصيرة بالرغم من أهدافها العميقة، إلاَّ أنَّ خصوصيتها مقارنة بمقاله تتمثّل في أصحابها الذين، على العكس منه، يبدون اهتماما مباشرا بالدراسات البربرية، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي يجعل من مقاله يكتسب صبغة فريدة من نوعها: إنّه مقال المؤلف القبائلي الذي يتناول دراسة القبائل متجرِّدا من قبائليته، إلاَّ أنَّ أصله قد يكون في نفس الوقت عاملا رئيسيا يدفعه نحو الانشغال بمواضيع الهويات

والأقلّيات[5]. بالموازاة مع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أنَّ من أهم ميزات هذا العدد من المجلة هو تخصيصه بأكمله للشخصيات العلمية من الأصل القبائلي المتواجدة بفرنسا، في نفس الوقت الذي صادفت فيه عملية طبعه ونشره سنة 1994، سنة كثر فيها الحديث عن القبائل إثر اقترانها بأحداث مشهورة في الجزائر، كإضراب المحفظة مثلا أو كاختطاف الفنان القبائلي "معطوب الوناس" من طرف الجماعات الإرهابية المسلحة، هذا إضافة على كونها أيضا إحدى سنوات العشرية السوداء في الجزائر.

إذن وعلى الرغم من مجهودات المجلة في توسيع مجال نشر هذه المقالات، إلاّ أنَّ نص "عبد المالك صياد" لم يذع صيته بعيدا ولم يكتسب الشهرة اللاّزمة، وهو يظل لحد الساعة واحدا من ضمن نصوصه التي قليلا ما تستعمل أو تذكر في الأبحاث العلمية، فهو النص الذي لم يرد مثلا في كتاب "الغياب المزدوج" الذي شمل أغلب المقالات التي ألفها حول الهجرة، فالقارئ المتعوِّد لـ "عبد المالك صياد" سيلاحظ –دون شك– أنَّ هذا المقال يعتبر توضيحا حاول من خلاله المؤلف إلقاء الضوء على أصول الهجرة القبائلية أكثر ممّا يعتبر عرضا طويلا للموضوع، إلاّ أنَّ هذا الأمر لا يقلِّل من أهميته في ربط الظاهرة بالظروف التاريخية للجزائر من زواياها المختلفة مبرزا من خلال ذلك أنَّها بالفعل نتيجة للأسطورة القبائلية[6] في الوقت نفسه الذي تظل فيه المنتج المستمر لها عبر الزمن، فقد كانت الهجرة القبائلية ولا زالت لحد الساعة، حلقة الوصل في سلسلة التاريخ بين الجذور الاستعمارية لنشأة الأسطورة وفجور إعادة بعثها المتجدِّد في الجزائر المستقلة من حين لآخر والذي لم يتردّد– كلما صادف مواعيده المألوفة– في ترك بصمات ذات آثار اجتماعية، اقتصادية وسياسية.

إنَّ الاهتمام بالبحث في ظاهرة الهجرة عند القبائل من طرف الأكاديميين لم يكن بالاختيار العشوائي، بل لأنَّها شكَّلت النواة الأولى للهجرة في منطقة الشمال الإفريقي كله، فقد كانت هي السباقة لكل الهجرات الأخرى، وقد مثَّلت أقواها وأكثرها كثافة ليس من حيث عدد القبائل الذين هاجروا فحسب بل هي كذلك أيضا اجتماعيا، فالجزائر "الفرنسية" أنذاك، كانت منبعا لليد العاملة التي أبدت فرنسا حاجة ماسة لجلبها نحو "المتروبول"، ولعلَّ المعارضة التي تلقتها من طرف المعمِّرين المتواجدين بالأراضي الجزائرية هي التي أرغمتها على تركيز جهودها في منطقة القبائل، بصفتها منطقة جبلية، فقيرة، وغير مستقطبة، لذا كان نجم شمال إفريقيا، بصفته أول تنظيم سياسي في تاريخ الحركة الوطنية والذي تأسَّس بالمهجر، ذو تشكيلة غلبت عليها عناصر من منطقة القبائل، متشبعة بالأفكار السياسية التي اكتسبتها جراء احتكاكها بالحزب الشيوعي الفرنسي من جهة وانخراطها بالمنظمات النقابية العمالية من جهة أخرى، بصفتها هجرة عمالية اقتصرت على جلب فرنسا لليد العاملة الرخيصة من أرض مستعمرتها. هذا باختصار ما أكسب الهجرة الجزائرية السمة الاستعمارية، القبائلية، الجبلية، العمالية، الفصلية، الفردية، والذكرية.

من الهجرة القبائلية إلى الهجرة المغاربية: غيَّر الاستقلال الكثير من المعطيات في بداية الستينات، وقد سمح لذلك لبعض المصطلحات الجديدة بالبروز على الساحة العلمية، وعليه تحوَّلت على إثر ذلك تسمية هجرة شمال إفريقيا إلى تسمية جديدة : الهجرة المغاربية نسبة لدول المغرب العربي، إلاَّ أنَّ هذا التحوُّل لم يقتصر على التسمية فقط بل على مدلولها أيضا، إذ بدلا من هجرة عمال مستعمرات شمال إفريقيا والتي كان يغلب عليها هجرة أهل القبائل أصبحت تشمل كل جهات الوطن الجزائري، هجرة شاملة، هجرة عائلية، هجرة تشمل أيضا وبكثافة الناطقين بالعربية، ممَّا جعل من المهاجرين الناطقين بالقبائلية يتحوَّلون اجتماعيا من أغلبية إلى

أقلية، أي أنّهم باتوا يمثّلون هجرة تكاد تكون خفية وذلك بالنظر لدرجة اندماجهم في بيئة المهجر (المجتمع الفرنسي)، الأمر الذي يجعلها تقترب من هجرات جنوب أوروبا خاصة الإيطالية، البرتغالية والإسبانية، أكثر من اقترابها من الهجرات المغاربية الحديثة نسبيا، بل وتختلف أيضا عن الهجرة البربرية المغربية كهجرة بربر الشلوح في الجنوب والريف في الشمال، كلا بل وحتى على الهجرة البربرية لأهل الأوراس الشاوية في شرق الجزائر نفسها.

إنَّ الخصوصيات الاجتماعية التي تنفرد بها الهجرة عند القبائل لم تغير فيهم أي شيء من حيث تمسُّكهم بلغتهم، بدينهم وبتقاليدهم وطقوسهم التي لا زالت تطبع سلوكهم في المهجر كما يبيِّنه الواقع، والتي تجعل من هجرتهم أيضا، جزء لايتجزأ من التجربة المغاربية التي تغلب عليها حاليا هجرة الناطقين بالعربية.

إنَّ الجالية القبائلية في المهجر مثلها مثل باقي الجاليات الجزائرية والمغاربية الأخرى، فهي ليست أقل أو أكثر جزائرية من الأخرين ولا أكثر أو أقل إسلامية من البقية الباقية[7]، فأمازيغيتها لا تفردها بشيء عن بقية الجاليات المهاجرة على الرغم من أنَّ خصوصيتها اللغوية، الجغرافية و"الدينية" –العوامل نفسها التي تم الاستناد إليها لبلورة ما يعرف بالأسطورة القبائلية– هي التي لعبت دورا في جعلها السباقة على باقي الهجرات الأخرى، تماما كما جعلتها تكسب الصور الاندماجية المثلى خاصة لدى الرأي العام الفرنسي، على الرغم من أنَّ عراقة الهجرة وقدمها لا يعني أبدا نجاحها في كل الأحوال، ولعلَّ تبوء البعض من الشخصيات ذات الأصل البربري لمناصب وزارية في حكومتي "فرانسوا فيون[**] أمثال: "فضيلة عمارة" و"عزوز بقاق"، لا يجعل منها شخصيات أكثر كفاءة أو نجاحا من غيرها من الشخصيات الوزارية ذات الأصول المغاربية المهاجرة الأخرى،

أمثال "رشيدة داتي"، فالأمر هنا يتعلّق بالسياسة الفرنسية التي تحرص على تجسيد التنوُّع أكثر ممّا يتعلَّق بنجاح أو كفاءة الشخصيات المختارة في حدّ ذاتها، إنَّه تلاعب إيديولوجي أكثر من كونه تقدير للنجاح، هل هذا يعني أيضا أنَّ أصولهم القبائلية ليست بشيء في هذا الاختيار؟، بل التساؤل الآخر الذي قد يطرح نفسه في هذا المقام، يدور حول مدى دراية "فرانسوا فيون" كوزير أول أو "نيكولا ساركوزي" كرئيس جمهورية لقبائلية البعض وعدم قبائلية البعض الآخر من هذه الشخصيات قبل تعيينها في تلك المناصب الهامة، التي سمحت لها –في كل الأحوال– باكتساب طابع الرمزية، وهو ما يبيِّن واقعيا إحدى الصور الواضحة التي تنعش الهجرة من خلالها اليوم، الأسطورة القبائلية التي لازالت بدورها تتدعَّم بالهجرة.

ألقى عبد المالك صياد، من خلال هذا النص، الضوء على هذا الموضوع بتفصيل ملم، وبحياد تام، فالقارئ لمقاله يلتمس أنَّ المؤلف يتناول في موضوعه فاعلين أساسيين في علاقتهما بالأرض وهما : المهاجرون، والمغاربة، وهو لا يخص بالحديث "القبائليين" على الرغم من كونه قبائلي الأصل، منحدر من أسرة متوسطة ولد بـ "أغبالة" ببلاد القبائل (منطقة بجاية) سنة 1933، شغل، قبل أن يلتحق بالجامعة المركزية بالجزائر العاصمة سنة 1956 ليزاول دراسته في الفلسفة وعلم النفس، منصب معلم بمدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة سنة 1954، وقد مثلت الهجرة بالنسبة له وسيلة اختارها لتعميق البحث في موضوعها ممّا جعله يعيش وضعية المغترب المختلف عن باقي الأكاديميين الذين بحثوا في نفس الموضوع سواء في الجزائر أو في فرنسا، الفرنسيين منهم والجزائريين ولعلَّ من أهم ما شده للبحث والكتابة في هذا الموضوع هو انتمائه لنفس الجيل الذي شكل الدفعة الأولية من العمال المهاجرين والأجراء الفلاحين بفرنسا، فقد عايش أحداث جيله

في ظل الجزائريتين: المستعمرة ومن بعدها المستقلة، بالجزائر بداية وبين الجزائر والمهجر حتى وافته المنية عام 1998 بفرنسا، مخلفا من ورائه إرثا علميا أكسبه بكل جدارة لقب الباحث الاجتماعي المتخصِّص في الهجرة الجزائرية نحو فرنسا[8]، بحكم معرفته الميدانية لكلا المجتمعين الجزائري والفرنسي، ناهيك عن التكوين الذي تلقاه على يد استاذه "بيار بورديو" والذي جمعته به علاقات ذات طابع تعاوني، متعدية بذلك تلك العلاقات البسيطة التي عادة ماتربط الاستاذ بطالبه[9]، خاصة وقد كان بالنسبة له بمثابة المفتاح الذي فتح له بوابة المجتمع القبائلي الذي اعتمد عليه "بيار بورديو" كأرضية لأغلب الدراسات الاجتماعية التي قدمها واشتهر بها، كتلك التي تمحورت حول "البيت القبائلي" و"معنى الشرف" مثلا[10].

اشتهر بصفة عامة "عبد المالك صياد" بأنَّه الباحث الاجتماعي الذي ركز أعماله حول الهجرة إذ تناول مواضيع مختلفة تعلَّقت مثلا بالوضعية الصحية للمهاجرين، العمل الاتصال، والدولة والوطن، حيث جعل منها، سيما في المنطقة المغاربية، ظاهرة اجتماعية حديثة ذات أصول تاريخية استعمارية وأبعاد سياسية واقتصادية مترابطة.

الترجمة وعلم اجتماع الهجرة

يعدُّ هذا العمل بالنسبة لي أول تجربة علمية وعملية في الترجمة، فهي ليست بالأمر البسيط الذي تبدو عليه لأول وهلة، إذ أنَّها تطرح بعض الصعوبات تتعلَّق بالمعنى الدقيق للفكرة الأصلية للمؤلف والتي على المترجم أن يحرص كل الحرص على احترامها ونقل المدلول الذي قصده المؤلف من ورائها والذي يجب أن يكون هو نفسه المدلول الذي استوعبه المترجم، فالترجمة على هذا الأساس، تستلزم تمعنا مطولا في قراءة النص

الأصلي، أو بالأحرى قراءات متعدِّدة تجعل منك في كل مرة قارئ جديد لنفس الموضوع.

إنَّ مثل هذه الأعمال الاكاديمية المبعثرة عبر المجالات المختلفة، ستختفي في الحقل الأكاديمي الجزائري حتما إذا لم تترجم إلى اللغة العربية[11]، لذا فإنَّ الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وبالرغم من الصعوبات التقنية التي تطرحها الترجمة من جهة واللغتين الفرنسية والعربية من جهة موازية، إلاَّ أنَّها ضرورة علمية لا مفر منها، بل وتحد تقتضيه حتمية الالتحاق بركب الحقل العلمي بصفة عامة، لضمان المشاركة المستمرة – وليست العرضية– في المنافسة التي تخضع بدورها لشروط تكاد تكون حكرا على الجامعات الأجنبية التي تزداد تحكما في قواعدها عبر الزمن، وذلك بحكم شغور منصب المنافس لها.

أخيرا، بحكم أول تجربة، وبحكم تجارب من سبقني في الميدان[12]، ستظل الترجمة في نظري، بكل صعوباتها، متعة علمية متميِّزة، ناهيك إذا كان المؤلف الأصلي يطرح إلى جانب موضوع نص الترجمة خصوصية إضافية: فترجمة عبد المالك صياد (كجزائري) في موضوع الهجرة القبائلية (أي الجزائرية)، تفترض الابتعاد عن القاعدة العامة للترجمة التي تستدعي الاستناد إلى لغتين وبالتالي بلدين أو بالأحرى مجتمعين مختلفين، لأنَّها في الحقيقة ترجمة تستدعي تغيير البلد دون تغيير الأشخاص، زيادة على أنَّ اللغة الفرنسية في الجزائر تتمتَّع في الواقع بطابع مزدوج، فهي أجنبية ووطنية – غير رسمية – في آن واحد، ولعلَّ ذلك الأمر قد شكَّل عاملا تقنيا مساعدا على خوض هذه التجربة العلمية وعرض الترجمة في نصِّها الآتي:

أصول الهجرة القبائلية: (بقلم عبد المالك صياد)

ساد الاعتقاد منذ زمن طويل أنَّ أصل الهجرة الجزائرية في فرنسا أمر يكاد يكون مقصورا على القبائل بصفة خاصة، ويعرف عن الأحكام المسبقة أنَّها أفكار تتميرَّز بقدرة عالية على الصمود في وجه مختلف التحديات وهو ما يفسِّر استمراريتها ودوام التمسك بها في المجتمع. فالبرغم من كون الهجرة الجزائرية، ريفية كانت أو حضرية –منذ قرابة القرن– هجرة شملت كل مناطق الجزائر ومست كل الشرائح الاجتماعية والطبقات الشعبية بصفة فردية أو عائلية (في البداية في شكل عمال معزولين ثم في شكل هجرة عائلية)، إلاَّ أنَّ الهجرة القبائلية ظلّت تمثِّل دوما (وبالخصوص من وجهة نظر الرأي العام الفرنسي) الصورة النموذجية للهجرة الجزائرية في فرنسا في مجملها، ممَّ جعل باقي الجاليات المهاجرة من المناطق الأخرى للجزائر تختفي وراء هذا الحكم المسبق.

الجذور التاريخية للاعتقاد السائد

إنَّ هذه الصورة (أي هذا الحكم المسبق) ، ليس بالإمكان الحكم عليها لا بالصواب ولا بالخطأ، إنَّها صورة أو أسطورة سابقة للهجرة في حدِّ ذاتها، بل وقد ساهمت هذه الأخيرة في تأسيس وتدعيم هذه الأسطورة القبائلية، التي ساهمت ولا زالت بدورها تساهم بنفس القدر في تكوين الهجرة نحو فرنسا.

بصفة مختصرة، يمكننا وصف العلاقة التي تربط بين الهجرة الجزائرية والأسطورة القبائلية بالعلاقة الدورانية بما أنَّ كل واحدة منها تتدعَّم من الأخرى.

إنَّ الأسطورة القبائلية[1] ما هي إلاَّ الصيغة الجزائرية للأسطورة البربرية التي ذاع صيتها في المغرب الأقصى حيث نشأت وارتقت إلى أسلوب سياسي رسمي، عرف بما يطلق عليه غالبا اسم "سياسة فرق تسد".

القبائل وظاهرة التجارة المتنقلة

إنَّ اللّجوء إلى "التجارة المتنقلة" كعادة معروفة منذ القدم عند أكثرية القبائل وكوسيلة لكسب العيش، أصبح يمثِّل في هذا الوقت الحالي حجة علمية لتدعيم الفكرة المتمثِّلة في أنَّ ظاهرة الهجرة الحديثة هي امتداد خطي لها وكأن التجارة المنتقلة التي كانوا يمارسونها في إطار الاقتصاد التقليدي يمكن أن تكون لها علاقة بالاقتصاد الرأسمالي الحديث من جهة، والهجرة الحديثة التي تبحث عن العمل المأجور من جهة أخرى، علما أنَّ هذه الأخيرة قد ظهرت وتطورت في إطار الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الاستعماري الحديث، وهكذا يظل الهدف الأساسي لهذا الخطاب الشبيه بالعلمي، يستجيب لأغراض سياسية أكثر منها علمية.

القبائلي "أكثر استعدادا للعمل"

تسبَّب سوء تسويق الخمور الجزائرية (سيما مع تحسين الكرم الفرنسي الذي تمّ تطهيره من "الفيلوكسيرا") وأزمة زراعة العنب في بداية هذا القرن، في دفع المستعمرين المضطرين إلى تحقيق ادخار، إلى التقليص في اليد العاملة الأوروبية التي يبدو أنَّها كانت ذات تكلفة باهظة الثمن نسبيا، كما دفعتهم أيضا إلى اكتشاف اليد العاملة الجزائرية وامتيازاتها الاقتصادية من حيث كونها سهلة الاقتناء ومنخفضة الثمن.

في هذا المقام لا بدَّ من التذكير أنَّه وفي الحقبة الأولى من الاستعمار، ساد الاعتقاد أنَّ الأهالي ينتمون إلى سلالة منحطة متخلِّفة ستؤول تلقائيا وحتما نحو الزوال دون الحاجة إلى أي تدخل خارجي أو سياسي، خاصة وقد عمَّ الاعتقاد بأنَّه كلما احتكَّ شعب متقدِّم بشعب متخلِّف (العرق الأعلى بالعرق الأدنى)، كان مصير هذا الأخير الاضمحلال والزوال، هذا وقد تزامن ظهور هذه النظرية العرقية والعنصرية مع بروز الهجرات الأولى لأهالي المجتمعات الجزائرية والإفريقية المستعمرة بصفة عامة نحو أوروبا وفرنسا بصفة خاصة.

القبائلي "أكثر قابلية للإدماج"

من ضمن باقي الاعتقادات السائدة في شأن الرجل القبائلي، أنَّه مقتصد، مقاول، جريء، ماكر، براغماتي واقعي، أكثر تحرّرا اتجاه الدين وقيوده، أكثر تحرُّرا اتجاه التقاليد والضغط الاجتماعي الذي تمارسه المجموعة إيمانه سطحي، وممارسته للمعتقدات الدينية معتدلة وأقل تعصبا، وهو ما يجعل القبائلي أكثر قابلية للإدماج وأكثر ليونة للتكيُّف مع العادات الاجتماعية والثقافية الغريبة على مجتمعه الأصلي، سيما تلك الخاصة بالمجتمع الاستعماري "المتطور" الذي يتكفَّل بمهمة "تحضيره" ثقافيا واجتماعيا.

إنَّ هذه الصورة بالخصائص التي أسندت للفرد القبائلي في إطار بناء الأسطورة القبائلية لا تعبِّر في الحقيقة عن مميِّزات الفرد القبائلي بقدر ما تعبِّر عن إرادة المستعمر في رسم معالم الوجه المناقض والمعاكس للفرد العربي، لذا استطاعت هذه الاسطورة على غرار باقي الاعتقادات الخرافية والذهنية أن تجسِّد وجودها في الواقع بمجرَّد اكتسائها الحلة العلمية التي يوفرها لها الخطاب "شبه العلمي" والإيديولوجي، الشيء الذي حدث

بالفعل مع الأسطورة القبائلية التي تكاد تتحوَّل باستمرار إلى حقائق واقعية، فالخطاب المشكل بهذه الطريقة من شأنه أن يخلِّد الأسطورة ليضيف لها وبأثر رجعي مزيدا من المصداقية.

الهجرة والريف

تشترك الهجرات القديمة منها والحديثة في أصلها الريفي الذي كان منذ الأزل يزود المدن والعالم الحضري بصفة عامة بمنتجاته الفلاحية وكفاءاته البشرية التي كان يوفِّرها بانتظام للمناجم والمصانع وغيرها من الورشات، فالهجرات الدولية الخارجية الحديثة ما هي إلاَّ امتداد جغرافي للهجرات الوطنية الداخلية التقليدية (النزوح الريفي)، فيا ترى **ما هي الأسباب التي تدفع بالمجتمعات الريفية والقروية إلى اتخاذ قرارات مغادرة الأهل والعائلة والقرية نحو المدن؟**

يعتبر تاريخ هذه الحركات البشرية من البداوة نحو الحضارة، من القرى نحو المدن، خاصية اجتماعية وجغرافية لكل مجتمعات العالم الثالث، إذ أنَّ أغلبية المهاجرين ينتمون دوما إلى الأصل الريفي والمجتمعات المختلفة، ممَّا يجعل كل أنواع الهجرات تتخذ نفس الاتجاه، غالبا من الجنوب نحو الشمال.

تعتبر الهجرة الجزائرية نموذجا مثاليا لكل هجرات العالم الثالث من حيث أسبقيتها الزمنية وكثافتها البشرية[2]، فتاريخ الهجرة الجزائرية هو جزء لا يتجزأ أو مرآة عاكسة لتاريخ المجتمع الريفي الجزائري وتاريخ استئصاله الذي استهل مع بداية الاستعمار الفرنسي، ولعل قبل الشروع في تطوير هذه الفكرة يستحب التعريف بالاستعمار الذي يرد من وجهة نظر مزدوجة:

أولا: الاستعمار كسيطرة واحتلال عسكري يميزه العنف مع استلاب الأراضي عن طريق القوة.

ثانيا: الاستعمار من وجهة نظر البعد التاريخي، المتمثّل في فرض نظام اقتصادي واجتماعي جديدين، وغريبين من عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، فالطبيعة المختلفة لهاذين النظامين الدخيلين تستوجب حتما اللّجوء إلى العنف من أجل فرضهما حتى ولو لم يقتض ذلك التواجد الفعلي للمستعمر بالأراضي المحتلة.

إنَّ مجرَّد اقتحام هاذين النظامين الجديدين المجتمع الجزائري يعتبر في حد ذاته عنفا رمزيا وماديا، وعليه فإنَّ عملية تعميمه ستكون دون شك أكثر درجة في العنف.

إشكالية الشرق والغرب

إنَّ هذه العملية المزدوجة التي تعتبر خاصية لكل أنواع الاستعمار الحديث، المباشر أو غير المباشر (والمقصود بغير المباشر هو المفهوم الثاني أي الاستعمار الذي لا يحتاج إلى مستعمرين)، قد اكتست في الجزائر حللا اختلفت باختلاف المناطق أو الجهات، وذلك تجاوبا مع الخصوصيات المحلية (التضاريس، أسلوب التقييم الفلاحي، التعمير، السكن، الهياكل الاجتماعية، التقاليد الثقافية، الخ...)، وبالأخصِّ وفقا لطرق اتصالها بالاستعمار وبما أدخله عليها من تجديدات.

لم تكثف السياسة الاستعمارية بفرض نفسها على المجتمع الجزائري وتقاليده بل تعدّته إلى استثمار الجهود العسكرية والسياسية من أجل تعميق الاختلافات الموجودة من قبل وتحويلها قدر الإمكان إلى معارضات بين المجموعات المحلية الجهوية، كتلك التي مست الشرق والغرب مثلا.

أولا معارضة جغرافية: كان الاستعمار يولي اهتماما كبيرا بالأراضي الجديدة أي الأراضي السهلية الخصبة والتي كانت سهلة للاستيلاء والاحتلال (بحكم شغورها في غالب الأحيان من المساكن وخلوها من الكثافة السكانية، ومنه انعدام التضامن الاجتماعي). لقد شكّلت هذه المساحات أولى الأراضي التي استولى عليها الاستعمار في بداية هيمنته العسكرية (1840-1844) كما مثلت ميدانا لتطبيق أولى الاجراءات الإدارية القانونية الخاصة بسياسة نزع الأراضي وإبعاد ملاكها الأصليين عنها مع تشديد الرقابة على المستوطنين لأجل استغلالها[3]، والتي وردت في سلسلة من القوانين ومراسيم الملكية العقارية بدءا من سنة 1844 إلى غاية 1930[4]، منها مثلا الأوامر الصادرة في 1844 و1846، قانون الملكية العقارية لسنة 1851، قانون السيناتوس كونسيلت لـ 1863، قانون فارنييه في 1873 والقانون التكميلي لسنة 1887 و1897. هذا إلى جانب الإصلاحات العقارية الأخرى الممتدة من 1901 إلى غاية 1919.

إنَّ كل هذه السياسات ذات الطابع العقاري والفلاحي كانت سببا في بروز أولى حركات النزوح الريفي التي سمحت بظهور موجات متدفقة من الأيدي العاملة من فئة الفلاّحين الذين انتزعت منهم أراضيهم لتصبح في متناول المعمِّرين.

أمَّا في الشرق الجزائري الذي تغلب عليه التضاريس الجبلية، فقد تميّز الاستعمار فيه بطبيعة مختلفة لأسباب تتعلَّق أولا بالطابع الجغرافي للمنطقة، التي كان تدخُّله فيها متأخرا نسبيا، تدريجيا عبر فترات متباعدة، أقل شدة وأقل تركيزا، الامر الذي ساعد الأهالي على "الاستعداد" لمواجهة مستجدَّات الوضع الذي أحدثها الاستعمار.

إستناداً إلى هذه الاختلافات الجغرافية بين الشرق والغرب والتي عمَّقها الوجود الاستعماري، ظهرت سلسلة من الخصوصيات الاجتماعية والإقليمية المتباينة والتي تمثَّلت في اختلافات شاملة.

-**الاختلافات الديمغرافية (البشرية):** يتسم الشرق بكثرة عمرانية وكثافته السكانية العالية، فالسكن كما هو الحال في المناطق الجبلية يتميز بالطابع القبلي القائم على التضامن والعصبية إذ أنَّه يتكوَّن في غالبيته من بنية قروية وتجمعات سكنية تزيد من درجة الالتحام الاجتماعي.

إنَّ هذا النمط من الحياة الاجتماعية يتطلَّب إقامة علاقات مدنية جوارية منسجمة ومتعاطفة بين الأفراد ممّا يفترض نوع مبسط من الحياة السياسية لتنظيم الحياة الاجتماعية، كنظام "تاجماعث" عند القبائل مثلا، كما أنَّ هذا الأسلوب المعيشي يختلف عن ذاك المتواجد في الغرب حيث يتَّسم السكن بقلة كثافته وكثرة توزعه عبر المساحات الواسعةممّا يقلِّل من درجة التضامن الاجتماعي نظرا لقلّة السكان، وهو الأمر الذي ينتج عنه في غالب الأحيان الإحساس بالعزلة والخوف.

-**الاختلافات في البنية العقارية وفي نوع الملكية أسلوب المعيشة**: المقصود بالبنية العقارية هي الأراضي الواسعة في الغرب ذات الملكية المشتركة من جهة، والأراضي المتقلِّصة ذات الملكية الخاصة في الشرق من جهة أخرى، حيث كان طابع الغرس يغلب فيها على طابع الزرع.

-**اختلافات ذات طابع ثقافي**: يتميّز الغرب بكثرة عمرانه وتمدنه فهو بلد الشيوخ (جمع شيخ، بلد رجال الدين والمعلِّمين) ممّا يجعله مؤهلا للحضارة، عكس الشرق موطن الجواد، بلد المقاتلين حسب عبارة "أوجستين بيرك" (أو كما يقال بلد "المقاجي"، أي المجندين المتطوِّعين وهو

ما يوافق نوعا ما المغامرين والمخاطرين)، فهو يتميّز بحياة ثقافية هزيلة وشفوية.

الهجرتين

إنَّ الاختلاف الإقليمي بين الشرق والغرب بما يحتويه من انعكاسات اجتماعية اقتصادية وذهنية، قد يشبه إلى حد ما نظرية المناخات لـ " مونتسكيو" التي خصَّ بها الشمال والجنوب الفرنسي، حيث أنَّه من الممكن جدا أن نطابق نموذج هذه النظرية على الجزائر في شأن شرقها وغربها، أي بين الجبال والسهول، بين النمط السكني الجماعي القروي والنمط السكني المبعثر (القليل الكثافة)، بين الغراسة والفلاحة المتنوعة ذات الطابع الجبلي والاستهلاك المحلي، والزراعة الأحادية الواسعة النطاق ذات الطابع السهلي والتجاري.

الغرب الجزائري والهجرة المحدودة

كانت الهجرة في الغرب منذ زمن تتم في اتجاه الأملاك العامة للاستعمار، وفي اتجاه العمل الفلاحي المأجور بأراضي كان المهاجرون أنفسهم ملاكها القدماء أو من أبناء ملاّكها الأصليين، انتزعت منهم بفعل الاحتلال الاستعماري.

إنَّها هجرة داخلية، هجرة ضعيفة السعة، من الجبال نحو السهول وهي في نفس الوقت هجرة محليه اختص بها هؤلاء الفلاحون "المستأصلون" في عقر ديارهم، كما تتسِّم هذه الهجرة بنوع من الاستمرارية بما أنَّها تظل تتعلَّق دوما بالفلاحة والفلاحين، فهي تمس نفس الميدان ونفس النشاط بنفس العتاد ونفس التقنيات ونفس تقاليد العمل، وهي تأخذ شكل الهجرة الفصلية التي يستكمل بها الفلاحون نشاطاتهم الفلاحية العادية (القليلة المردود)، كما يمكنها أيضا أن تأخذ شكل الهجرة المستمرة والدائمة، وذلك

كلّما تحتم عليهم الأمر، الاستقرار بضواحي أراضي المعمِّرين المنتزعة منهم، في مساكن قصديرية أو أكواخ من الطوب (ما يعرف في وهران بالقرى السوداء).

الشرق الجزائري والهجرة الحديثة

إضافة إلى الهجرة الداخلية والمحلية، ظهرت في الشرق وبصفة مبكرة هجرة جديدة، هجرة طويلة المدى، تعبِّر عن اغتراب حقيقي بما أنَّها تفرض وتفترض خبرة مهنية ومؤهلات نفسية، عائلية واجتماعية جديدة.

إنَّ هذه الهجرة تستلزم إحداث قطيعة جذرية مع النمط المعيشي السابق لتتأقلم في مجتمع مختلف ألا وهو المجتمع الفرنسي الاستعماري، وهو ما يجعلها هجرة ذات طابع صناعي تختلف عن الهجرة الداخلية للغرب وفي الغرب الجزائري التي تتَّسم بالطابع الفلاحي البحت.

ساهمت هجرة الشرق في النشأة الأولى للطبقة العمالية الكادحة الجزائرية في فرنسا[4]، كما تعتبر أيضا أولى وأكبر التجارب السياسية الجزائرية من خلال تأسيسها في المهجر لأولى تشكيلة سياسية جزائرية تطالب بالاستقلال حملت اسم "نجم شمال إفريقيا" سنى 1926.

بصفة عامة، ومهما كانت أهمية هذه المميزات والمعطيات الإقليمية الاجتماعية والاقتصادية للشرق والغرب، للجبال والسهول فإنَّها تبقى دائما غير كافية وغير قادرة على الإلمام بتفسير كل الفوارق والأسباب التي أدَّت إلى حركة الهجرة.

الهجرة والحرب العالمية الاولى

إنَّ سياسة التجنيد والتسخير التي انتهجتها فرنسا إبَّان الحرب العالمية الاولى اتجاه الرجال الفرنسيين، ولَّد الحاجة إلى اليد العاملة بشكل عاجل وبالغ الاهمية، إذ أنَّ توجيه أغلبية الرجال نحو الحرب كان سببا في تعويض

مناصبهم بالمصانع والمهن المختلفة من طرف النساء، الشيء الذي جعل من فرنسا في ذلك الوقت أول بلد أوروبي يشغِّل النساء، ممّا انعكس من بعد على معدّل المواليد الذي انخفض بشكل زاد من حدّة وخطورة المستقبل الديمغرافي للمجتمع الفرنسي.

تصدّياً لهذه الوضعية، طلبت فرنسا من مستعمراتها المشاركة في الحرب، وعلى إثر ذلك تمَّ تجنيد الأهالي الجزائريين إمَّا للتدعيم العسكري لصفوف الجيش الفرنسي ضد الألمان ولعويض الفراغ الذي تعاني منه المصانع الفرنسية ليحملوا في هذه الحال اسم "العمال المستعمرين". إلاَّ أنَّ السلطة السياسية الفرنسية بالجزائر ظلّت تعارض هذا الطلب محاولة قدر الإمكان منع التطوع للتجنيد أو هجرة الأهالي للعمل المأجور (تماما كما عارضت من قبل سياسة التعليم) تخوفا من إمكانية حدوث أزمة في سوق العمل بالجزائر والتي قد تسبِّب ارتفاعا في قيمة وثمن اليد العاملة الجزائرية.

بالموازاة مع ذلك، ظلَّت هذه السياسة تمثِّل في نظر الرأي العام للمعمِّرين المحليين (وخاصة كبار الملاك وكبار المزارعين) نوع من المنافسة الداخلية غير العادلة (بالنظر إلى الامتيازات المادية التي تعرضها فرنسا في باريس على الاهالي)، كما كان الرأي العام يتنبأ بآثار احتكاك الأهالي المجندين بالنقابات والثقافة العمالية الفرنسية البروليتارية، التي قد تنمي فيهم ذهنية المعارضة النقابية والسياسية ممَّا قد يُعلِّي من شأنهم.

نتيجة لكل ذلك، وبينما فرنسا تنتظر من مستعمرتها أن تزودها بما يقارب 40.000 عامل جزائري سنة 1915[5]، لم تمدها الإدارة الاستعمارية في الجزائر وإلى غاية 15 جوان 1916 إلاَّ بـ 15.000 عامل، الشيء الذي أجبر السلطات الفرنسية المركزية على اللجوء إلى فرض التسخيرة، ليس من أجل إلزام الجزائريين على التجنيد بل من أجل تفادي

المعارضة الإدارية للحكم الاستعماري المحلي الذي كان تحت هيمنة كبار ملاك المعمرين.

الهجرة الحرة

إنَّ الهجرة الحرة، والتي لم تكن في حسبان الرأي العام الفرنسي لا المركزي ولا المحلي، والتي كانت نتيجة للسياسة الاستعمارية منذ بدايتها وفي مختلف أشكالها، حقّقت نتائج أكبر من تلك التي حقّقتها سياسة التجنيد والتسخير: ففي السداسي الأول لسنة 1917 سجل 21.680 متطوع من أصل 26310 ذهاب، وقد تحصّلت الجزائر على سبيل المثال على تخفيض في العلاوة المقترحة من طرف وزارة الحرب من 5 إلى 2 فرنك في اليوم. وعليه فقد بلغ عدد المهاجرين الجزائريين مابين 1914-1918، 116.000 عامل، منهم 70.000 عامل سجّل عن طريق التسخيرة (بلغ عدد التسخيرات في المغرب وتونس 54.000 تسخيرة).

في المجموع، تمّ تجنيد 240.000 جزائري –أكثر من 1/ 3 العمال ذكور يتراوح عمرهم من 20 إلى 40 سنة.

يبقى أنَّ الامر الملفت للانتباه هو أنَّ أغلبية العمال المهاجرين والمجندين انحدروا بصفة عامة من الأصل الريفي والقبائلي بصفة خاصة، إذ أنَّ كلتا السلطتين الفرنسيتين (في باريس والجزائر العاصمة) لجأتا بصفة عاجلة وفورية إلى حلٍّ آخر، ألا وهو الاتجاه نحو المناطق الجبلية القبائلية حيث كانت مصالح وقوة المستعمر ضعيفة، وذلك بالنظر إلى ندرة الأراضي السهلية ومنه قلّة تواجد المعمرين بها.

إنَّ طبيعة هذا الاختيار تنطبق أيضا على الغرب ولا سيما في بعض مناطقه التضاريسية العالية مثل مرتفعات الورسنيس (دوار بومعد، الذي زود الهجرة المحلية بدوره بعمال فلاحين دائمين، مثلما زود الهجرة نحو

فرنسا على فاصل بعض الأجيال) وقمم لالا مغنية (سيما دوار سواحلية ومسيردة).

الهجرة والتعليم

انتهجت السياسة التعليمية الاستعمارية بالجزائر نفس الأسلوب وعرفت نفس مصير الهجرة، فقد واجهت هي أيضا نفس الصعوبات ونفس الكوارث من أجل نفس الأسباب واستنادا لنفس المنطق، كما تلقت أيضا نفس المقاومة –إن لم تكن أشد– من طرف المعمرين لنفس الحجج وبنفس سوء النية.

نظراً لكل ذلك، اضطرت السياسة التعليمية الاستعمارية للُّجوء إلى نفس الحل بما أنَّها وقعت في نفس الإشكال، أي أنَّها اتجهت نحو جبال القبائل لفتح أولى مدارسها بالقرى الداخلية للقبائل العليا (الأربعاء نايث إيراثن، بني يني، آيت أوغليس).

إنَّ شأن التعليم كان نفسه شأن التجنيد العسكري، إذ يعتبر كلاهما النواة الأولى للهجرة العمالية الخارجية الطويلة المدى، وأولى قطيعة اجتماعية وذهنية مع المجتمع القروي الجزائري في نمط معيشته (اللباس، أسلوب التخاطب والمعاملات)، كنتيجة لولوج النقود كمعيار اقتصادي اجتماعي حديث في حياة الفرد الجزائري القروي.

فيا ترى لماذا حضي موطن القبائل بهذه الخصوصية التاريخية والاجتماعية حتى يصبح منبع سخي للهجرة نحو فرنسا من جهة ، ومحطة مشهورة للمدارس الاستعمارية (رغم محدودية التعليم في الواقع) من جهة أخرى؟

يرتبط تاريخ الهجرة بتاريخ التعليم من حيث أنَّ كلاهما قد ساهم بنفس القدر في تغذية الإيديولوجية الاستعمارية المتناقضة من وجهتي النظر

الاقتصادية والسياسية، حيث أنّها لم تحقق الهدف التي كانت تصبو إليه (الاندماج وتحديث المجتمع) بل حققت نقيضه ألا وهو الاستئصال العام، ففي القبائل مثلا تصادفت مواعيد الموجات الأولى للهجرة مع الموجات الاولى للمدارس الاستعمارية، فقد شيّدت أول مدرسة فرنسية بقرية "تمازيرت" مباشرة بعد المدارس التبشيرية الأولى للآباء البيض بـ "واغزن"، "واضية" و"جمعة صهريج"، وقد تمّ من بعد إعلان قرار التعليم الإجباري في القبائل عام 1885.

مرة أخرى لماذا التركيز والإلحاح على بلاد القبائل؟

الهجرة القبائلية والسياسة الاستعمارية

في هذا المقام لا بدَّ من إعادة عرض دور الاسطورة القبائلية التي تعتبر تشويه حقيقي للوقائع السوسيولوجية، وذلك تلبية لحاجات تقتضيها سياسة إدماج قائمة على التفرقة. لقد كانت الهجرة القبائلية مطلوبة ومشجعة (إلى حد ما طبعا)أكثر من غيرها، أكثر حتى من تلك الخاصة بالمناطق الجبلية الأخرى (كالأوراس مثلا)، لدرجة أنّها أصبحت عاملا رئيسيا في السياسة البربرية (القبائلية) للإدارة الاستعمارية.

تقلَّص تعاطف وتضامن بعض الأكاديميين والجامعيين الفرنسيين مع الأهالي (الانديجينوفيليا) إلى درجة التمركز حول القبائل (القبائلوفيليا)، وقد تمّ هذا التحول بصورة مستترة، لا شعورية، سريعة، آلية، وتلقائية، كوسيلة لدعم أهداف عنصرية، إذ عرَّض ولا زال يعرِّض القبائل كمثال ناجح للسياسة الاندماجية الفرنسية، في نفس الوقت الذي كرس فيه هذا الخطاب (القبائلوفيلي) الفكرة الاسطورية الايجابية للميزة القبائلية ولعب دورا هاما في ملاطفة الخصوصية القبائلية التي تسبّبت في زرع الفتنة بينهم وبين غيرهم من الجزائريين.

إنَّ الهجرة التي استقلت اليوم –إلى حد ما– عن القيود التقليدية السابقة التي كانت تحكمها (الهيمنة والمراقبة العائلية، الجماعية والقروية)، لا زالت –وربما أكثر من ذي قبل– تدعِّم الفكرة التمييزية للأسطورة القبائلية، فاليوم، وحتى إن لم يظهر ذلك جليا، تجدر الإشارة إلى أنَّ الاعتقاد الذي لا زال سائدا لدى العامة في الجزائر وفي فرنسا، هو أنَّ القبائل يمثِّلون النموذج الناجح للاندماجية أكثر من غيرهم من بقية المهاجرين الجزائريين، بل وحتى من كل المغاربة بصفة عامة[6].

هوامش المترجمة

1) «*Entretien avec Abdelmalek Sayad*» par Hassan Arfaoui, in : Le monde Arabe dans la recherche scientifique, (M.A.R.S). nº 6 (Printemps/été) 1996, p4.

2) أمثال محند خليل الذي تناول نفس الموضوع بطرح مختلف جذريا عن ذاك الذي تبناه عبد المالك صياد، أنظر/

Khellil Mohand, ***L'exil Kabyle***, L'harmattan : paris, 1980.

*) في كثير من الأحيان يتم استعمال مصطلح المسألة البربرية أو الامازيغية، إلاَّ أنَّ القصد الحقيقي من خلالها يكون المسألة القبائلية، فالمسألة البربرية تنحصر في الجزائر كلها ببلاد القبائل دون غيرها من المناطق البربرية الأخرى، لذا فالأحسن هو تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية.

3) Abdelmalk Sayad, *« Aux origines de l'émigration kabyle ou montagnarde* », in : Hommes et migrations, (septembre), Nº 1179, 1994, Adri : Paris, pp6-11

4) أنظر الملحق الوارد في نهاية المقال.

5) A. Sayad « *Minorités et rapport à l'Etat dans le Monde méditerranéen : Etat et minorités en Algérie, le mythe Kabyle* », in : Connaissance de l'islam Paris, syros, 1992, pp 135-181.

6) Charles Robert Ageron, « *la France a-t-elle eu une politique Kabyle ?»In, « revue historique* », 84é année, tome CCXXIII, NºII, Presses universitaires de France : Paris, 1960, pp 311-352.

7) لمزيد من المعلومات، أنظر:

Chachoua Kamel, *L'islam kabyle : religion, Etat et société en Algérie*. Suivi de L'epitre (Rissala d'Ibnou Zakri) Alger 1903) Mufti de la grande mosquée d'Alger. Paris, Maisonneuve et larose, 2001.

**) المقصود هنا هي حكومته الأولى ثمَّ الثانية التي شغلت فيها "فضيلة عمارة" منصب كاتبة الدولة المكلفة بشؤون المدينة حتى 13 نوفمبر 2010 تاريخ التعديل الحكومي الأخير، أما " عزوز بقاق" فقد شغل منصب وزير مفوض لتطوير تكافؤ الفرص في ظل حكومة "دومينيك دو فيلبان" في الفترة ما بين 02 جوان 2005 إلى 07 أفريل 2007، بينما "رشيدة داتي" فقد شغلت بدورها منصب المتحدث باسم "نيكولا ساركوزي" أثناء حملته الانتخابية الرئاسية سنة 2007، ومن بعد منصب حافظة أختام الجمهورية ووزيرة العدل في ظل كل من الحكومة الاولى والثانية لـ"فرانسوافيون((، وذلك حتى تاريخ 23 جوان 2009.

8) أطلع على قائمة المراجع، سيما مؤلفات "عبد الاملك صياد".

9) *Anthropologie de l'émigration (société de l'émigration) : et Science de l'immigration pour Abdelmalek Sayad 1933-1998*, sous la direction de Chachoua Kamel, Alger, CNRPAH, 2011, sous presse.

10)Pierre Bourdieu, ***Esquisse d'une théorie de la pratique précédé de trois études d'ethnologie kabyle***. Genève, DROZ, 1972. Notamment les chapitres sur « la maison kabyle ou le monde renversé » et « le sens de l'honneur».

11)لتجمع في كتاب واحد على الشكل الذي جمعت به مقالات "عبد المالك صياد" الخاصة بالهجرة في كتاب:

Abdelmalek Sayad, ***La double absence : des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré***. Paris, Le seuil, 1999.

12)Kamel Chachoua, « *Traduire l'immigration vers l'arabe : le cas des travaux du sociologue algérien Abdelmalek Sayad* ». in : la traduction des sciences humaines et sociales dans le monde arabe contemporain : Sous la direction de Richard. Jacquemond, Collection dialogue des deux rives, fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud : Casablanca, 2008, pp 73-86.

هوامش المترجم

1) في مرجع ألف في القرن 15 وصدر في 1826 (بعد وفاة المؤلف)، كان الأب "قيوم رينال" قد رسم لوحة للقبائل وصورة للقبائلي، الذين تضمنا الخصائص التي أعيد طرحها تدعيما للخصوصية القبائلية التي أعجب بتأسيسها، أنظر:

Historique philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique. Paris, imprimerie Costes, 1826.2 vol.

حول نشأة ووظيفة الأسطورة القبائلية سنطلّع على أعمال مؤرخي الجزائر المعاصرة وخاصة.

CH.R.Ageron, ***les Algériens musulmans et la France***. Paris PUF, 1968.2 tomes 1298 p, *« la France a-t-elle eu une politique kabyle ?* »In : revue historique t 223 (2) avril-juin, 1960.

R.Mabrouki, « ***La canstruction du mythe kabyle*** », D.E.S de sciences politiques, Alger, 1975.

A.Sayad, « ***Emigration et nationalisme, le cas algérien*** »in : genèse de l'Etat moderne en Méditerranée, école française de rome, N°168, 1993, pp/407-436.

2) اعتبرت فرنسا أول دولة من العالم المتطور، بواسطة توسعها الاستعماري (إنشاء المقاطعات الجزائرية)، لجأت إلى جلب اليد العاملة من دولة تعتبر اليوم

من دول العالم الثالث (اختراع الهجرة الحالية). كما اعتبرت أيضا الجزائر المستعمرة، أول بلد من دول العالم الثالث اليوم الذي اتجه نحو العمل المأجور (أي للهجرة الحديثة). في كل هذه المسائل حول النشأة الاجتماعية للهجرة وطابعها النموذجي، في جانبه الاقتصادي، السياسي، الثقافي إلخ... إطلع على:

Sayad, Abdelmalek (1985). « L'immigration algérienne une immigration exemplaire.» dans : les algériens en France. Sous la direction de J. Costa-Lascoux ei E. Termime. Paris : édition publisud.

Sayad, Abdelmalek et Pierre Bourdieu (1964). Le Déracinement : La Crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie. Paris : Minuit.

3) إنَّ بداوة الغرب وبصفة عامة تلك الخاصة بكل السهول العليا للبلاد، على عكس بداوة أراضي الجبال وبصورة أوسع الأراضي الفقيرة، التي احتقرت وأهينت من طرف الاستعمار، لا يبدو أنَّها قد استعادت قوتها من الضربات التي كانت قد تلقتها مبكرا، قبل حتى أن يكون لها الوقت لرد الفعل والتهيؤ لاستقبال الصدمة. كدليل على هذا الاختلاف في الوضعية الاجتماعية والذهنية بين أهل الريف، نذكر مثلا سلوكاتهم المتباينة خلال الثورة التحريرية، حقيقة أنَّه من الصعب فتح مجابهات مكشوفة في مناطق غير محمية، إلاّ أنَّ هذا المعطي الجغرافي لا يمكنه أن يفسِّر بأنَّ كل رؤساء الولاية السادسة (منطقة وهران) ينحدرون من الشرق. تمديدا لهذه العلاقة، فإنَّ التقسيم الحالي (في الجزائر المستقلة) لقطاعات السلطة، يوضح انتماء الجيش في أغلبيته إلى الشرق الجزائري، في حين يستحوذ الغرب على الوظائف الأنيقة ذات الهبة التي تستدعي رؤوس أموال رمزية كبيرة (نسبيا)، رأسمال من الثقافة، من التميز، من العمران، وكل الصفات الايجابية التي ترتبط بالمدينة وبشروط الحضارة، فجزائر الغرب هي جزائر حضرية نسبيا.

4) وحتى بعد فترة الاحتلال، أي في الجزائر المستقلة، بداية مع تأسيس نظام التسيير الذاتي الفلاحي، الذي ارتبط واستمر مع إجراءات "الثورة الزراعية"،

ومن بعد ذلك وحديثا مع الانفتاح المحتشم لهذا القطاع العام، لكنه انفتاح اتفاقي، انحرف عن أهدافه المنتظمة ليحقق أهداف مراوغة.

5) Sayad, ***l'immigration algérienne en France***. Gillette et A. A. cf. Paris, édition entente, 1976, et plus particulièrement le chapitre « l'émigration comme fin en soi », pp/75-85. Et aussi

A.Sayad. « ***Emigration et nationalisme***…» art. cit .

6) مثلا، قامت وزارة الفلاحة – لقد اعتبرت الفلاحة الفرنسية دوما من أكبر مستعملي اليد العاملة المهاجرة، وذلك حتى في زمن السلم – بتشغيل مليون عامل فلاحي لصالح البوص.

7) من أجل عرض سريع للآثار السياسية للهجرة على المدى الطويل، أنظر:

3) A.Sayad, *« Minorités et rapport à l'Etat en Algérie, le mythe kabyle* ».In : Connaissance de l'islam Paris, syros, 1992, pp/153-181.